

الحرية والسعادة

السعادة شعور داخلي عميق، يظهر أحيانا على الوجه بشكل طاغي، وأحيانا يعيش في القلب ساكنا دون أن يعبر عن نفسه ويكشف عن سره أمام الناس. إنه ذلك الشعور الذي يمنح الإنسان ثقة كافية بالنفس كي يعيش لحظات السعادة أو أيامها أو سنواتها بحرية وبهجة.. أن يقول ما يريد أن يقوله أمام الغير دون خوف، وأن يفعل ما يريد أن يفعله دون خجل، وأن يُمسي ويُصبح مع أحلامه وذكرياته وأحداث يومه دون ندم.

لكن علينا أن نفهم أن هناك فرقا كبيرا بين أن يقول الإنسان ما يريد أن يقوله دون خوف، وأن يفعل ما يريد أن يفعله دون خجل. إن ما يصدر عن الإنسان من أقوال يعتبر عادة شيئا هاماً، لكن القول لا يعني القائل بقدر ما يعني من يسمع الكلام من الغير من الناس. لذا كان على الإنسان أن يكون أميناً مع الغير قبل النفس، لأن أمانة الكلمة تعكس موقفاً أخلاقياً ينبع من إحساس صادق بالمسؤولية تجاه الذات والغير.. إنها موقف يُجسد حالة من التمتع بحرية الرأي وممارستها دون خوف.

لكن أن يفعل الإنسان ما يريد أن يفعل ه فيعنيه أكثر بكثير مما يعني الغير من ال ناس.. إنه المقياس الأهم للسعادة، أو بالأحرى هو الطريق الذي يوصل الإنسان في نهاية المطاف إلى الشعور بالسعادة والرضا عن النفس. لذا، على الإنسان أن يُركز على ما يريد أن يفعل وما يعود عليه بالرضا عن النفس والطمأنينة أولاً، ومن ثم يمكن أن يفكر فيما يريد أن يقوله أمام الغير ثانياً.

أما الندم، فهو أكثر ما ينغص حياة الإنسان.. إنه سم يتسلل إلى القلب والروح ليفسد كل ملذات الحياة، حتى الأحلام الوردية منها، ويحولها إلى خطايا. لذا كان على الإنسان أن يتجنب أي قول أو فعل من شأنه أن يعود عليه بالندم. إن من يتمسك بمفهوم العيب مثلاً قد يشعر بالندم لمجرد خلع ملابسه على شاطئ بحر أو قضاء وقت ممتع مع صديق، خاصة إذا كان الصديق من الجنس الآخر، حتى لو كان اللقاء في رحاب جامعة. وهذا يعني أن على مثل هذا الشخص أن يختار بين الابتعاد عن ممارسة مثل تلك الأفعال، أو التخلي عن العادات والتقاليد التي تقوم بتقييد حريته، ودون ذلك لن يكون بإمكان ذلك الشخص أن يشعر بالسعادة ولا الاستمتاع بعلاقاته مع الغير دون ندم. إن أي فكر أو تقليد يقيد حرية الإنسان، لا بد وأن ينتقص من قدره.. يستهين بعقله وإنسانيته.

إن من أهم متطلبات السعادة، خاصة بالنسبة لإ نسان يعتقد بأنه يتمتع بقدر كبير من الذكاء أو المروءة، هو الابتعاد عن التفكير فيما استحوذ عليه الآخرون من ثروة، أو مكانة علمية أو أدبية، أو سلطة سياسية. إن من المؤكد أن يكتشف كل إنسان يفكر في الغير أن هناك من الناس من حصل على ثروات وسلطات وجاه أكثر منه بكثير، بالرغم من أن البعض يتصف بضعف الذكاء وسوء الأخلاق وعدم الأمانة، وهذا من شأنه أن يعكر صفو حياة من يفكر في الآخرين ويقارن نفسه بهم.

يعيش الإنسان عادة سنوات شقاء طويلة من أجل حظرات متعة قصيرة، فسنوات الشقاء لا يمحوها سوى الإحساس بمتعة الحياة التي تحمل في طياتها رضاء الإنسان عن نفسه وعن أوضاعه وعن علاقاته مع الآخر، بعيدا عن مشاعر الخوف والحسد والغيرة والجشع والندم.

www.yazour.com

د. محمد ربيع